

إيطاليا تحتفي بالكوميديا الإلهية في خضم الجائحة

معراج ثقافي يصلح بين الديني والدنيوي في التصدي لكورونا



قراءة تطهيرية تخفف من جحيم الوباء في زمن التوجه إلى السماء

الذين لم يقرأوها، يتحدثون عنها وكأنهم قرأوها أو شاهدها، وذلك لكثرة ما استلهم منها رسامون وموسيقيون أعمالهم.

ويتفق نقاد ومتخصصون على أنها أعظم عمل إبداعي أنتجته أوروبا في القرون الوسطى، الأمر الذي يتباهى به الإيطاليون هذه الأيام على صفحات التواصل الاجتماعي، وذلك للتعبير عن سخطهم وغضبهم من قصي البلدان الأوروبية في مساعدة إيطاليا على احتلتها، مذكّرين بأنه يكفي بلادهم فخرا أن أنجبت دانتي، موقد شرارة النهضة الأوروبية بأكملها.

ليس غريبا أن يُصنح بقراءة رائعة دانتي، في أيام الحجر الصحي، ضمن قائمة كتب تحفز القدرة على مقاومة اليأس والقنوط وتقوي المناعة ضد العسر بسرا..

إن ما فعلته وزارة الثقافة الإيطالية منذ أيام من مبادرة لإحياء ذكرى شاعرها الكبير، والاستئناس برأيتها الخالدة، والتسلح بها لمقاومة الوباء، تشبه ما ورد في "الكوميديا الإلهية" نفسها، عندما جاء فيها بأنه، وحسن يتمكّن اليأس من دانتي، يظهر الشاعر الروماني فرجيل، مؤلف "الإلياذة"، معلنا أنه جاء ليرشده، وذلك عند نزوله إلى الجحيم من البوابة المحروطة التي أنشأها إبليس أثناء السقوط.

وهنا يستدعي دانتي، آلهة الإلهام لإنقاذ، وهو أمر تكتشفه عند فصلي "المطهر" و"الجنة" في كتابه الذي يمثل اليوم جسر عبور نحو النجاة من فايروس كورونا المستجد، وفق ما ارتأته الجهات الثقافية الإيطالية التي لم تنس شاعرها الملحمي بعد سبعة قرون من غيابه.

ومن تستعصي عليه قراءة دانتي في هذا الحجر الصحي، فليكتف بالاستماع إلى رثاعة الموسيقار فرانز ليزت، الذي حاول أن يترجم هذا النص الملحمي إلى إنجاز موسيقي، وذلك من خلال عمله الشهير "سمفونية دانتي".

التقدير والعرفان اللذان نالهما دانتي، جاء على شكل أعمال فنية ودراسات فكرية استلهمت اكتشافاته على مدار قرون، وتبناها كبار من أمثال أوغست رودان وسلفادور دالي إلى عزرا باوند ونيل غيمان.

وتلقى دانتي، نفسه، متأخرا نوعا من طلب السماح والاعتذار، على شكل ما يعرف بـ"الفداء الدنيوي" وكان ذلك في عام 2008، عندما ألغت مدينة فلورنسا في النهاية، نفي دانتي، القديم.

التي سكنت روحه، تظهر إليه في هذه اللحظات عند قمة الجنة الأرضية. وهنا يؤدع الشاعر الملحمي فرجيل، ليصحب محبوبته في السماوات السبع ذات الكواكب المتحركة، ثم يطيران إلى عرش الآلهة، وحوله تسع دوائر من لهيب، فيها جوقات الملائكة، تسبح للمكوت الإله وعظمته في ألوان ومناظر خلابة مبهرة، إلى أن يصل إلى مناطق تسكنها الأرواح الخالدة المضيفة. الخاتمة تمثل عند دانتي، السعادة المطلقة، وبناء على هذا السلم التدرجي والمفهوم التفاضلي، شكل صاحب الكوميديا الإلهية رؤيته لمفهوم الكتابة الملحمية الجديدة، وفق شطحات لم يعرفها الذين سبقوه في الكتابة والاستلهام.

«جائحة فنية» خالدة

"الكوميديا الإلهية" لم تترجم إلى مختلف لغات الأرض فحسب بل ولغشرات المرات داخل اللغة الواحدة، مما جعل حتى

المرعبة، تخفي خلفها أعظم قصة حب على الإطلاق، إذ يعبر دانتي مع الشاعر فرجيل، رمز الحكمة الشعرية، ويتجول الأثنان معا في طبقات الجحيم السبع، وصولا إلى مريض الشيطان الذي يقع في أقصى وأبعد مكان عن الإله، ويعرف بـ"الزهري".

وفي مرحلة وسطى بين الجحيم والفردوس، يصل بطلنا إلى ما يشبه "البرزخ"، وهو "المطهر" ذو الطوابق السبعة، حيث يزداد الأمل في الفردوس بعد إعلان التوبة وبداية التخلص من رجس الجحيم وأماله. وإذا ما نجت أرواح المتطهرين مما علق عليها من ذنوب، تترجل نحو عالم الجنان. وهنا يهتز الجبل كله في "الكوميديا الإلهية"، ويصبح الجميع مجددين حبيبة دانتي،



الكوميديا الإلهية، سيرة غريبة كانت السبب في رثاعته تلك. إذ إن الشاعر، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره، وقع في حب بيتريس بورتيناري، الألامر الذي شكل له دافعا لإنجاز هذه الملحمة.

منذ أن توفيت حبيبته حاول دانتي البحث عن موقع له في قسم الأدب اللاتيني. وتوجّه إلى دراسة الفلسفة، لكنه خرج بملحمة مكتوبة بالعامية، وتدير ظهرها إلى كل ما هو فصيح يدعي الهيئة في واقع يعج بالمفارقات الكوميديّة.

تبدأ رحلة دانتي بكل ما هو موحش ومثير للفرع متمثلا في عبارة منقوشة على باب الجحيم تقول "يا أيها الداخل هنا اترك وراءك كل أمل"، لكن الأثر العبارة

كيف التقى شيخ المعرفة بصوفي فلورنسا

الأساسي الذي يحدده بنظرة عقلانية متفحصة للفكر والدين، ونقد السائد في عصره، من رؤى سطحية ساذجة للكينونة البشرية.

المعري ودانتي يلتقيان، وإن باعدت بينهما ثلاثة قرون من الزمن، عند سؤال وجودي ظل يورق الإنسان منذ نشأته، وهو الحياة في ما بعد الموت

التشابه اللافت في الملحمتين، هو أن كلا من المعري ودانتي قد سخرا وانتقما بل وتشفيا أحيانا من شخصيات واقعية وخيالية عرفها الأثنان بأسلوب لا يخلو من الضحك والاستهزاء، فهذا ابن القارح، بطل المعري، ينتقل في الجنة ويلتقي ويحاوّر عددا من الشعراء، منهم من غفر الله لهم بسبب أبيات قالوها كزهير بن أبي سلمى والأعشى وعبيد بن الأبرص والناطقة الذبياني ثم يلتقي الشعراء من أهل النار ويسامرهم.

أما دانتي ومرافقه الشاعر فرجيل، فيعبر تسع دوائر من الجحيم، في كل واحدة منها تزداد العقوبات شدة لتتناسب حجم المعاصي، إذ يلتقي في الدائرة الأولى شخصيات أسطورية

العذابات التي تعصف بالذات البشرية في رحلتها نحو إدراك السلام المطلق. اليس غريبا أن تأتي العقلانية من الشرق المتهم بالإغراق في الروحانيات، وتتجسد الميتافيزيقا الأخلاقية في عمل رجل يفوح إيمانا رغم أنه يعيش في غرب يتلمس خلاصه آنذاك، في الرهان على منجزات العقل البشري، سببلا وحيدا للخلاص من هيمنة الكنيسة وغطرسة الإقطاع الحاكم باسمها؟

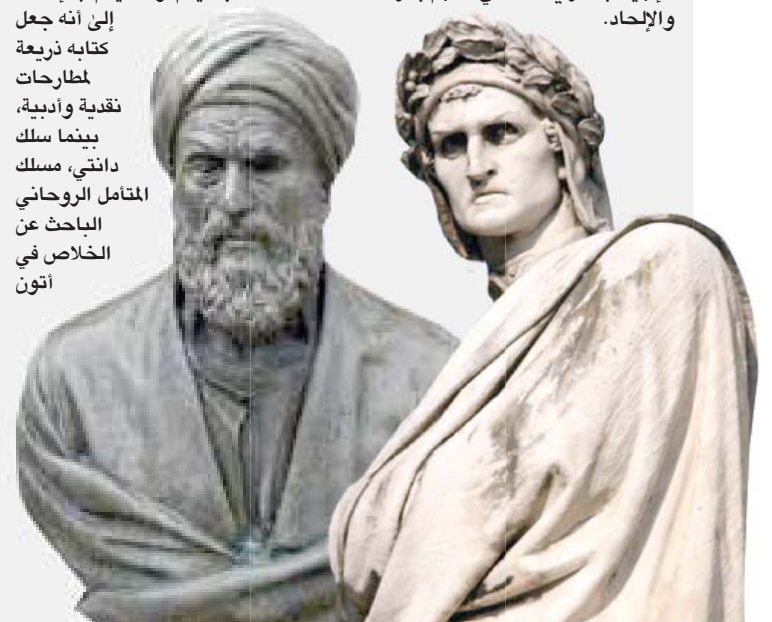
ولأن "الأسلوب هو الرجل" كما كتب الفرنسي جورج بوفون، فإن كلا من المعري ودانتي، قد عاشا ظروفًا مشابهة هي أقرب إلى العزلة والإحساس بالقهر والتهميش، فابو العلاء المعري، الملقب بـ"زهين الحبسين" ألف رسالته في عزلة أشبه بالحجر الصحي في أيامنا، لا يقل شعورا بالغرابة من دانتي، الذي كتب الكوميديا الإلهية أثناء وجوده في المنفى بفلورنسا.

يبقى الفرق في أن الكوميديا الإلهية، هي أول عمل مهم يكتب بالعامية الإيطالية، وعلى طريقة "التيرزا ريمّا" وهي أبيات ثلاثية النغم اخترعها المؤلف، جعل دانتي بداية قصته في الخميس المقدس 1300 حين كان يبلغ 35 عاما من العمر، وأشار إلى بلوغ منتصف العمر في الأبيات الافتتاحية من القصيدة، بينما ركز أبو العلاء المعري، في رسالة الغفران، على إبراز ما أسماه النص المحوري، وذلك لإبراز غرضها

ومهما يكن من أمر، فإن الرجلين يلتقيان -وإن باعدت بينهما ثلاثة قرون من الزمن- عند سؤال وجودي ظل يورق الإنسان منذ نشأته، وهو الحياة في ما بعد الموت. الأطروحات والغايات مختلفة لدى كل واحد منهما، فالعري، الذي لا يدين بغير العقل، ألف كتابه بقصد الحاجة الفكرية والسخرية من التصورات الحسية السائدة حول ثنائية الجحيم والنعيم بالإضافة

إلى أنه جعل كتابه زريعة لطارات نقدية وأدبية، بينما سلك دانتي، سلك المتأمل الروحاني الباحث عن الخلاص في أتون

الفايروس الملعون سلك طريق الحرير أيضا، لكن سبقته، ومنذ مئات السنين، كتب ومخطوطات وزخارف وطرق طبخ وتفكير.. وبلا أدنى شك، "رسالة الغفران" التي ألفها رجل كفيف من بلاد العرب، اسمه أبو العلاء المعري (973 - 1057)، وسببت إرباكا وجدلا كبيرين بين مصنف ومكذّب، حول مدى تأثير دانتي، المؤمن الروحاني، في الكوميديا الإلهية، بالمعري العقلاني المتهم بالزندقة والإلحاد.



ليس هنالك من حزن أقسى من تذكر لحظات السعادة في اللحظات المأساوية، تلخص كلمات الشاعر الإيطالي دانتي أليغييري، حال الناس اليوم في مختلف أنحاء العالم، وهم يعيشون تجربة العزل القسري بسبب جائحة كورونا. يحرض دانتي بمقولته هذه وبمؤلفه الذي اقتبست منه، "الكوميديا الإلهية"، إحدى الروائع التي طالما أشاد بها الناس، على البحث عمّا يخفف من جحيم الوباء، في زمن التوجه إلى السماء.



حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

ذات البعد الأسر، والمعروفة بـ"الكوميديا الإلهية". الإيطاليون يلعبون جراحهم، ويستحضرون في عنفوان ثقافي قل نظيره، واحدا من أهم الأسماء التي أسست لنهضة أوروبا والعالم عبر مزج اللاهوت بالواقع، وإقامة جسر من التصالح بين الرباني والإنساني.. جسر لا يتقن بناءه إلا الإيطاليون الذين ينتهي عندهم طريق الحرير القادم من بلاد الصين.

الألمة لا تمزج

لسائل أن يسأل، بعد القراءة الورقية أو المشاهدة الفيلمية لهذه الرائعة الفنية التي تحبس الأنفاس وتخطف الأبواب: من أين جاءت لفظة "الكوميديا"، وكذلك "الإلهية" في هذه السيرة القاسية المفعمة بالأوجاع والعذابات في عالم ما وراء، لا يقبل بالصفح وطلب الغفران. لقد حصل ما في الصدور، وما عليك إلا أن تواجه مصيرك مثل حقيقة لا تقبل الجدل.

الواقع أن دانتي، اكتفى في تسمية ملحمة بـ"الكوميديا" مقسما إياها إلى ثلاثة فصول: الجحيم، المطهر والجنة الأرضية والسماوية، أما عن صفة "الإلهية" فجاء ذلك بعد مرور ربع قرن من نشرها إذ أضاف الأديب الروائي بوكاتشو جيوفاني، هذا الوصف بقصد إضفاء التقديس والكمالية، حيث إن الملحمة اتّصفت بالطابع الديني ممزوجا بالطابع الإنساني، وذلك على عكس ما عرف عن ملحمتي هوميروس، من مأس خطلتها الأقدار وانساققت إليها مسيرة الإنسان بكل إرادته.

أما عن الكوميديا، فهي في مفهوم دانتي، عبور من الألم الذي يمثله الجحيم، نحو الفرحة الذي يمثله الفردوس. هذا المفهوم لا يمكن إلا أن يستوعبه حامل أسلوب، تمثل في اعتماد لغة فلورنسا العامية والميسرة، بعيدا عن الجزالة والتفاصح والاستعراض البلاغي.

وبما أن لكل حكاية مدهشة، قصة موازية، تسير في ظلها وتكتشف أو تنسى بأسباب وجودها، فإن لصاحب

ليس غريبا أن يُصنح بقراءة رائعة دانتي، في أيام الحجر الصحي، ضمن قائمة كتب تحفز القدرة على مقاومة اليأس والقنوط في إحالة إلى روحانية من نوع خاص

يحدث هذا والناس يعيرون من "بوابة الجحيم" التي جعلها دانتي مدخلا نحو الخلاص الذي يجب عليه أولا، أن يجد طريقه عبر الجحيم، كما ورد في الجزء الأول من قصيدته السردية